كارل ماركس

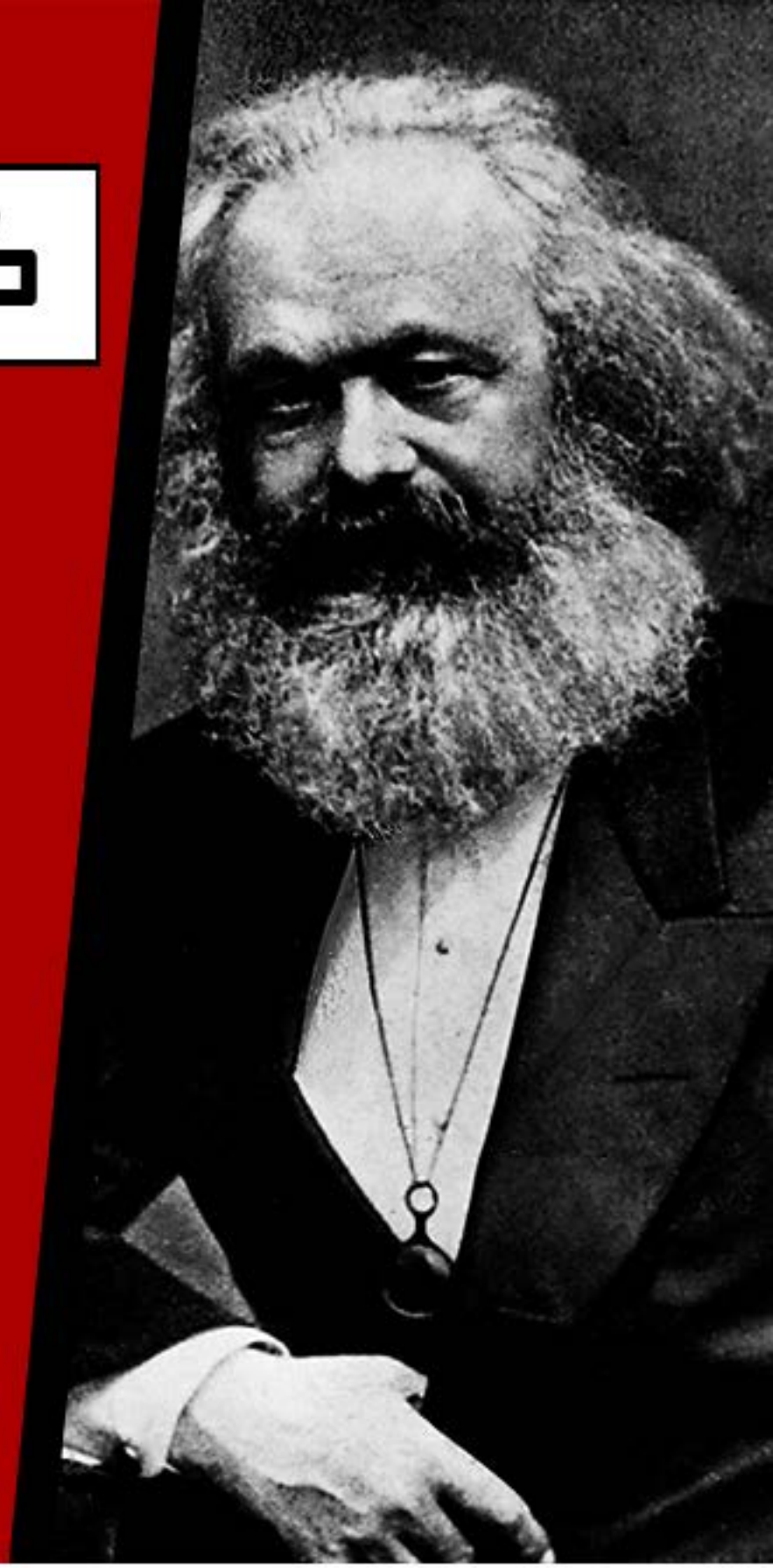

النظرية والممارسة

وحدة الترجمة ـ مركز الدراسات الاشتراكية

كارل ماركس
النظرية والممارسة

بقلم: مايك جونزاليس

ترجمة: ضي رحمي - أشرف عمر

وحدة الترجمة – مركز الدراسات الاشتراكية

١- مولد "المناضل الجريء"

كان كارل ماركس ثورياً. وقبيل وفاته، ردد بضع مرات قوله أنه حين ينظر لهؤلاء الذين يسمون أنفسهم ماركسيين، يتساءل إن كان هو نفسه ماركسي. ومنذ وفاته عام ١٨٨٣، استُخدِمَ اسم ماركس، في مناسبات عدة، كمبرر للاستبداد والاستغلال – أي الاستراتيجيات التي كانت تماماً عكس كل آمن به. ظل "البيان الشيوعي" الذي كتبه مع رفيق عمره فريدريك إنجلز متصدراً قائمة الكتب الأكثر مبيعاً حتى نهاية تسعينيات القرن العشرين، وفي بداية القرن الحادي والعشرين، أظهر استطلاعٌ للرأي بين جمهور البي بي سي أن ماركس لا يزال محتفظاً بمكانته كأعظم فيلسوف عبر العصور.

لكن، وصفه بالفيلسوف ليس وصفاً دقيقاً، خاصة بعد قوله أن: "كل ما فعله الفلاسفة هو تفسير العالم؛ لكن الأهم هو تغييره". لقد مثّلت هذه العبارة الشهيرة علامة فارقة ولحظة حاسمة في تطور فكر ماركس نفسه، اللحظة التي تحول فيها من فيلسوف إلى مفكر ثوري.

وُلِدَ كارل ماركس عام ١٨١٨، ابناً لعائلة يهودية ميسورة الحال ببلدة تريير، في راينلاند بألمانيا. كانت جيوش نابليون قد احتلت البلدة لفترة وجيزة في مطلع القرن، قبل أن تعود مرة أخرى تحت سيطرة الدولة البروسية بحكمها الملكي المستبد. كانت إقامة نابليون بالبلدة قصيرة، لكنه خلّف وراءه بعض الأفكار حول الحرية والتغيير، أفكار ومبادئ الثورة الفرنسية.

هيرشيل، والد ماركس، كان يحفظ عن ظهر قلب كتابات فولتير وروسو، وكان معروفاً بتصريحاته العلنية في المناسبات العامة حول ضرورة وجود نظام سياسي ممثل بشكل صحيح، فضلاً عن شجبه للتمييز الذي عانى منه اليهود في بروسيا. هاينريش (بعد أنّ بدّل ديانته من اليهودية إلى البروتستانتية وغير اسمه) لم يكن ثورياً – لكنه لم يكن في مأمن من رياح التغيير التي هبت على كل أرجاء أوروبا في ذلك الحين. ولم يكن بوسع كارل الشاب إلا أن يتأثر ببعض أفكار أبيه الليبرالية.

أصر الأب أن يدرس كارل القانون. وبحلول عام ١٨٣٥، في عامه السابع عشر، بدأ ماركس دراسة القانون في جامعة بون. لكن الحقيقة أنه كان مهتماً بالشعر والنبيذ والفلسفة أكثر (ليس بالضرورة بنفس الترتيب). إلى حد ما كان هذا تأثراً بلودفيج فون ويستفالين، أحد أصدقاء العائلة الأثرياء، الذي عرّف كارل الشاب على شكسبير وشعراء اليونانية. (في عام ١٨٤٣، ستصبح ابنته، جيني، زوجة ماركس ورفيقته مدى الحياة).

لم يكن حماس ماركس للفلسفة حماساً دراسياً فقط. فعندما كان طالباً، كانت النقاشات الفلسفية فرصة جيدة للفت الانتباه لقضايا المجتمع والتاريخ وتطور الإمكانات البشرية. ولقد هيمن فيلسوف بارز على كل تلك النقاشات الشغوفة، وهو هيجل. كان هيجل واحداً من المؤيدين المتحمسين للثورة الفرنسية؛ وكان مؤمناً بأن العالم سيدخل عصراً جديداً عندما يبدأ العقل في تطوير العلاقات الإنسانية. لكن عندما جاء الوقت الذي اختلف فيه ماركس مع أفكار هيجل، كان الأخير قد أصبح من المفكرين المحافظين، مقتنعاً بأن الله يمثل المنطق المطلق – وأنَّ الدولة البروسية – القمعية السلطوية – هي أوضح تعبير عن هذا المنطق الإلهي.

قَدم ماركس من تريير ومعه أفكاره الليبرالية، لذا فقد لفت انتباه مجموعة من شباب الطلاب كرّسوا جهودهم "للتغيير بالأفكار" – الهيجليين الشبان. هيجل، الذي كان ثورياً في وقت سابق، هو من اقتدوا به. كانوا ليبراليين ملحدين وبوهيميين وصحبة مناسبة جداً للشراب، تماماً مثلما كان ماركس عندما انتقل إلى برلين وانضم لنادي الأساتذة، حيث كان ذو لحية وشعر طويل وهي علامات متعارفة ومقبولة عن المفكر الراديكالي.

كان الهجيليون الشبان والمحيطون بهم متفقين في عدائهم للاستبداد القمعي للدولة البروسية؛ فبالنسبة لهم كانت الثورة الفرنسية تعني التنوير والتغيير والأفكار التقدمية التي من شأنها تحويل ألمانيا الإقطاعية إلى الرأسمالية الديمقراطية الحديثة. في ذلك الوقت كان ماركس قد تخطى بالفعل الأفكار التي سبق وأن تأثر بها في تجمعات والده المنزلية. رغم ذلك فإن معارف والده من رجال الأعمال التقدميين وأمثالهم

كانوا هم من موّلوا جريدة "راينش تسايتونج" التقدمية التي عارضت استمرار الشكل الإقطاعي للدولة البروسية، وهي الجريدة التي بدأ ماركس في تحريرها فور عودته لترير عام ١٨٤١.

وكان لحادثة صغيرة أثراً في تطور تفكير ماركس. فكان قد أُلغي مؤخراً حق الفلاحين التقليدي في جمع الأخشاب من الغابة بموجب قانونٍ جديد عرّف هذا الفعل بأنه سرقة لأن تلك الأخشاب ملكية خاصة. وافق ورحب بهذا القانون كل من ملاك الأراضي والطبقة الصناعية الجديدة ممن موّلوا إصدار جريدته. وهكذا بدا الأمر، فالاقتصاد الرأسمالي الجديد القائم على الملكية الخاصة عاجز عن توفير أية ضمانات للفقراء والأجراء. وعلى نفس المنوال، أدرك ماركس أن الدولة التي وُجِدَت لتحمي الملكية الخاصة لن تحمي الطبقة العاملة.

بالنسبة لماركس، كانت تلك هي الخطوة الأولى نحو إدراك المجتمع من منظور طبقي. وحينما نشر بعض أفكاره الجديدة على صفحات جريدته، كانت فرصة جيدة لأن يُظهِر رقيب الدولة البروسية اعتراضه ويمنع نشرها، ويتخلص من "وقاحة المحرر المتزايدة". ولاقت بقية الصحف التقديمة الألمانية نفس المصير. كان الوقت قد حان للمضي قدماً، وبعد هنيهة انتقل ماركس وجيني، زوجته، إلى باريس. عائلة جيني الأرستقراطية لم تكن سعيدة بالصحفي المفلس المتطرف الذي ربطت ابنتهم مصيرها به. لكن موقف العائلة لم يمثل شيئاً لهما.

٢- الانتقال إلى باريس

رحل عدد من المنفيين إلى باريس، حيث يمكن نشر الأفكار التقدمية عبر جريدة جديدة. في أكتوبر، دعا ماركس الفيلسوف لودفيج فيورباخ لكتابة مقال حول أن الأفكار هي نتاج الوجود الاجتماعي وليس العكس. ولقد كان المقال مهماً وملهماً للغاية، وأمدّ ماركس بالزخم اللازم للمضي بأفكاره لما هو أبعد من هيجل والهيجليين الشبان. كانت النقاشات، حتى تلك اللحظة، مجردة إلى حد ما، لكنها وضحت أن تغير العالم هي عملية مادية، تغيير جذري للشروط الفعلية للحياة؛ وفي سياق تلك العملية تنشأ أفكار وإمكانيات جديدة.

هذا التغير في تفكير ماركس، لم يكن مجرد طفرة فكرية. ففي فرنسا وجد نفسه وجهاً لوجه مع حقيقة واقع الطبقة العاملة في المجتمع الصناعي النامي، حيث الأفكار الشيوعية والاشتراكية متأصلة ومتجذرة بالفعل. ليس فقط وسط الطبقة العاملة الفرنسية، ولكن أيضاً في أوساط ما يقرب من أربعين ألف عامل ألماني من المهاجرين هناك. لقد تأثر ماركس بـ "حيوية وعظمة" هؤلاء العمال.

> "من بين "برابرة" مجتمعنا المتحضر يعمل التاريخ على إعداد العنصر الأساسي لتحرير الجنس البشري".

واجهت الجريدة مشكلة وحيدة؛ فالنسخ التي أُرسَلت سراً إلى ألمانيا أثارت غضب الرقابة الحكومية. وسرعان ما صدرت الأوامر بالقبض على ماركس وآخرين، وتملك الخوف من الناشرين. ولم تكن تلك هي المرة الأولى، وبالتأكيد لم تكن الأخيرة، التي يجد فيها ماركس نفسه أمام فرص قليلة وميزانية أسرية متضائلة. لكن من منظور آخر، كانت تلك بمثابة فرصة جيدة وغير متوقعة لقراءة وتطوير أفكاره أثناء المناقشات الكثيرة والغاضبة بينه وبين أعضاء الحركة الآخرين. لم يكشف عن مذكراته حول تلك الفترة في باريس إلا بعد مرور وقت طويل، عندما نُشرت تحت عنوان "مخطوطات عام ١٨٤٤ الاقتصادية والفلسفية" (أو مخطوطات باريس).

في ذلك الوقت كان ماركس في السادسة والعشرين من عمره. لكن هذه الكتابات عكست طفرة فكرية للأمام في فهمه لتجربة العمل في المجتمع الصناعي الرأسمالي. ولم يكن "الاغتراب" مصطلحاً من اختراع ماركس؛ لكن بينما فسر فلاسفة مثل هيجيل الاغتراب بوصفه حالة نفسية أو سمة من السمات المشتركة بين جميع البشر، فإن ماركس أرجعه للظروف المادية للعمل:

> "بقدر ما ينتج العامل من سلع أكثر بقدر ما يصبح هو نفسه السلعة الأبخس ثمناً. ويوازي انهيار قيمة العالم الإنساني تنامي قيمة العالم المادّي.. إذ أن في انتزاع المنتوج اغتراب للعامل وإقصاء له. فالعمل لا ينتج سلع فحسب، بل إنه ينتج ذاته أيضاً، وينتج العامل باعتباره سلعة. إن شعور العامل بالاغتراب تجاه ما ينتجه يعني أن الشيء الذي ينتج بالعمل، يقف الآن في مواجهة العمل ككائن مغرَّب، كقوة مستقلة عن المُنتج. إن نتاج العمل هو العمل الذي تجسد في موضوع وتحول إلى شيء مادي، وبالتالي، فإن العامل لا يحقق ذاته في عمله، بل ينفي ذاته، ويكون لديه شعور بالبؤس أكثر من شعوره ككائن طبيعي".

وهذا التناقض الكبير يعد واحداً من أسس نظريات ماركس؛ حيث يعيد البشر تشكيل العالم ويبتكرون وسائل تحريرهم عن طريق العمل. لكن، في ظل الرأسمالية، يُبعد العمل إلى حد كبير العمال المنتجين عن تلك الحرية المحتملة، لأن ما ينتجونه يُنتزع منهم ومن ثم يُباع ويُشترى كسلع، بعيداً عن سيطرتهم. وهذا كله بسبب العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع - النظام الطبقي الذي يمنح طبقة واحدة الحق في تملك الإنتاج، في حين أن الطبقات الأخرى، أي الغالبية التي تنتج السلع، لا يمتلكون شيئاً باستثناء أجسادهم وقوة عملهم التي تشتريها وتبيعها الرأسمالية كما لو كانت مجرد سلعة. ولا تحدد احتياجات المجتمع ما يُنتَج، ولكن تحدده رغبة صاحب المصنع في مراكمة الأرباح.

وبذلك تكون الوسيلة الوحيدة أمام العمال للتغلب على الاغتراب هي نضالهم ضد الرأسماليين. في نفس العام، ضرب نضال عمال النسيج في سيسيليا بألمانيا مثلاً حياً لماركس لقدرة العمال على محاربة

النظام. وبالنظر إلى الحال في بلده، أدرك ماركس أن طبقة الرأسماليين وملاك المصانع ضعيفة بشكل لا يهيئها لتحدي الدولة وهزيمتها وانتزاع السلطة منها كما فعلت نظيرتها الفرنسية عام ١٧٨٩.

ولهذا، فإن الطبقة العاملة وحدها القادرة على التغيير. عندما كان يجادله بعض معاصريه ويسوقون حجتهم الأثيرة بأن العمال الألمان ليسوا على قدرٍ كافٍ من الوعي السياسي، كان ماركس يجيبهم بازدراء قائلاً أن لديهم ما يكفي من الوعي الطبقي، ويستشهد خلال ذلك بالمعارك التي خاضها عمال النسيج في سيسيليا كدليل دامغ على وجهة نظره. إن دفاع ماركس الشغوف عن عمال النسيج أوضح مقدار المسافة التي قطعها ماركس بعيداً عن زملاء السنوات الأولى.

لقد ساهمت دراسة الاقتصاديين الإنجليز، الذين وصفوا طريقة عمل نظام الإنتاج الرأسمالي، في تقديم منحناً جديداً في فهم ماركس. حيث بدأ الآن في الحديث عن "التحرر الذاتي للطبقة العاملة"، أي أن فهمه لطبيعة النظام كان في خدمة قضية الثورة. والتاريخ، كما يعرفه ماركس الآن، كانت تقوده دائماً قوى اجتماعية تسعى لغايات اقتصادية – وليس أية قوة خارجية أخرى، سواء كان الإله أو العقل والمنطق. في نقده للدين، سار الفيلسوف لودفيج فيورباخ في نفس اتجاه ماركس لبعض الوقت؛ ولكن كان أمام ماركس مسافة أخرى ليقطعها، ليؤكد أن التاريخ يتأثر بعمل الإنسان، وأن التحول في الإدراك الإنساني يتمثل في النضال من أجل تغيير العالم المادي وظروف الإنتاج.

٣- عشرة أيام هزت العالم

في عام ١٨٤٤، التقى ماركس لأول مرة بأكبر معاونيه فريديريك إنجلز. باعتباره ابناً لأحد الصناعيين، قضى إنجلز بعض الوقت في مصنع والده في مانشستر، واختبر عن قرب "أحوال الطبقة العاملة" - فقرهم واستغلال مصانع الشمال الجديدة لهم، بؤس أولئك الذين يقودون الآلة الإنتاجية للرأسمالية الصناعية. كان إنجلز أيضاً على اتصال وثيق بالحركة الجماهيرية المتنامية – الحركة التشارتية - والتي كانت بداية لتنظيم الطبقة العاملة لمقاومة أهوال المجتمع الجديد.

كان الشابين (كان ماركس يكبر إنجلز بثلاث سنوات) قد تعرفا بالفعل على كتابات بعضهما البعض قبل لقاءهما في أغسطس في باريس، أي أن هذا كان لقاء العقول، أول لقاء بين الثوريين الاثنين اللذين اقتنعا بأن مهمتهما هي بناء وتطوير رؤية شيوعية جديدة للعالم يمكنها تحفيز النضال الثوري للطبقة العاملة. ولكن أولاً كان أمامهما معركة كسب الحركة العمالية، خاصة في وجود آولئك الذين لا يزال لهم نفوذ بين العمال الألمان. الجدل المستمر، والغامض في بعض الأحيان، حول العائلة المقدسة كان يدور بين أوساط الهيجليين الشبان الذين رافقوا ماركس في البدايات المبكرة من رحلته، الآن يعرّف ماركس وإنجلز نفسيهما من خلال رفضهما لمناقشة تلك الأفكار إلا في سياقٍ سياسي.

"ليس بمقدور الأفكار وحدها تنفيذ شيء على الإطلاق. إن تنفيذ الأفكار بحاجة لرجال بمقدورهم ممارسة القوة العملية".

منذ هذه اللحظة فصاعداً، كرّس ماركس وإنجلز جهودهما لبناء المنظمة التي بوسعها التحضير للثورة، والتي سماها إنجلز "حرب الفقراء المفتوحة ضد الأغنياء". ولم يخف نشاطهما عن أعين مخبري السلطة وعملائها سواء في فرنسا، حيث لا يزال يعيش ماركس، أو في ألمانيا حيث كان إنجلز يتحدث إلى المجموعات السياسية والعمالية. منعت السلطات الفرنسية في أواخر عام ١٨٤٤ نشر جريدة "فوروارتس" الناطقة بالألمانية، والتي كان ماركس أحد كتابها؛ وفي غضون أسابيع قليلة لاحقة، تحديداً في فبراير ١٨٤٥، طُرد ماركس من فرنسا تحت ضغط من السلطة الألمانية. وبعد مرور شهرين على تلك الواقعة، غادر إنجلز ألمانيا متيقناً أن أمراً مماثلاً بشأنه كان في طريقه للحدوث بالفعل.

التقى الثوريان مرة أخرى في بروكسل، حيث كان لا يزال هناك قدراً من التسامح السياسي، وإن ظلا تحت أعين البوليس السياسي دائماً. كان ماركس قد صاغ بالفعل أطروحاته حول فيورباخ والأيديولوجيا الألمانية. يقوم العمال بالثورات في ظروف حقيقية ملموسة – ووفر إنجلز الدليل الحي من كل من نضالات العمال والظروف المادية التي وصفها ماركس بالفعل في مخطوطات عام ١٨٤٤. الفلسفة – التعامل مع العالم من خلال الأفكار - استُبدِلَت الآن بالتطبيق العمالي للثورة، وبناء الوسائل والأدوات التي بمقدورها إسقاط الرأسمالية ووضع حد للاغتراب، أي أن تكون الماركسية هي نظرية وممارسة الثورة العمالية.

أوضح كلٌ من ماركس وإنجلز رؤيتهما الجديدة تلك في الأيديولوجيا الألمانية، التي عرفّت الشيوعية بأنها "مبادئ وشروط تحرر الطبقة العاملة". أطروحات مخادعة في بساطتها عن فيورباخ، فقط ثلاثة صفحات وأحد عشر تعريفاً واضحاً، بينوا بجلاء مثير التغيير الذي يصنعه الرجلان. لطالما جادل الهيجليين الشبان بأن الأفكار والوعي هما الدافع للأفعال؛ ولهذا السبب ازدروا واحتقروا إضراب عمال النسيج بسيسيليا، لأنهم لم يكونوا "على قدر كاف من الوعي" بعد. وبنفس القدر من الازدراء والاحتقار، كان رد ماركس بأن الوعي هو جزء من دورة الحياة وأنه من أجل تغيير العالم، يغير البشر تفكيرهم. والعملية التاريخية، يقول ماركس: كانت "التقاء بين تغيير الذات وتغيير الظروف".

"ليس الوعي هو ما يحدد الوجود الاجتماعي، بل الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي".

الخلاصة، والكلمة الأخيرة جاءت في نهاية "أطروحات عن فيورباخ" وعبّرت بقوة وبساطة عن صميم الفكرة الشيوعية: "كل ما فعله الفلاسفة هو تفسير العالم؛ المهم هو تغييره".

ومنذ تلك اللحظة، كان هذا هو المشروع الذي كرّس من أجله، كلٌ من الرجلين، حياتهما وطاقاتهما.

في عام ١٨٤٥، رافق ماركس إنجلز إلى إنجلترا، حيث التقى مع قادة التشارتيين وآخرين غيرهم، وكانا مصرين على الدعوة لاجتماع يضم جميع الاشتراكيين الذين يعيشون في لندن. وعلى الرغم من عدم مشاركتيهما، إلا أن هذه الدعوة قدمت لمحة عن ما هو مقبل في المستقبل. شدد الرجلان على الطابع العالمي للرأسمالية، وقالا أن رد فعل موحد للطبقة العاملة قادر على أن يعبر الحدود. وبالعودة لبروكسل، نجد أنهم قد شكلوا لجان المراسلة الشيوعية، طليعة الأممية؛ التي كان الغرض منها بدء عملية "كسب البروليتاريا الأوروبية على مبادئنا وقناعتنا".

ويمكننا القول بأن تلك كانت نواة لحزب سياسي جديد قادر على الاتصال المباشر بنضالات الطبقة العاملة. وعلى الرغم من بديهية الفكرة، يجدر هنا الإشارة إلى أن الإيمان بأن على الثوريين العمل مع وداخل الطبقة العاملة، حيث أن عملية تحريرها هي الدافع للثورة، لم يؤمن بها كل أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم شيوعيين.

في هذه المرحلة، في حين أن ماركس، بشكل خاص، لم يتراجع عن كتاباته الدورية، كانت مسألة التنظيم هي ما تشغله هو وإنجلز. وبينما لم يكن بمقدور أحد التنبؤ بأحداث ١٨٤٨ الثورية، إلا أنه كان هناك تغيراً في الأجواء بالفعل حيث جمعوا قادة الاشتراكية الأوروبية معاً لتحديد طبيعة علاقتهم بحركة الطبقة العاملة. فعلوا هذا، كما فعلوه دائماً، من خلال مناقشات حادة وعنيفة داخل الحركة مع التيارات الأخرى التي كانت أفكارها من شأنها أن تؤدي إلى أشكال تنظيمية أخرى مختلفة تماماً. أفكار برودون، على سبيل المثال، بيّنت قناعات الحرفيين والعمال المهرة ودفاعهم عن قضية إنشاء جمعيات تعمل خارج دوائر رأس المال. لكن برودون نفسه كان رافضاً للنقابات العمالية و"معادٍ للثورة". الأفكارالأخطر صدرت من أناس مثل "فيتلينج" الذي، مثل أوجست بلانكي الفرنسي، كان غير مقتنعٍ بأن العمال مستعدون للثورة الآن، إلا إذا أُلقيت المهمة على عاتق مجموعات تآمرية صغيرة تعملً بالنيابة عنهم. إلا أن لم كل ذلك لم يؤدِ إلى تثبيط همة ماركس وإنجلز.

في أواخر عام ١٨٤٦، جذبت أفكارهما متعاطفين جدد، خاصة داخل رابطة العدالة بلندن والتي تأثرت بالتشارتيين أكثر من الروابط والفرق الأوروبية الأخرى. كانت هناك بعض الشكوك حول "المثقفين القاريين" الذين بدوا مهيمنين على أوروبا؛ ولكن القضية الأهم بالنسبة لماركس وإنجلز كانت إنشاء "الحزب"، أو على الأقل شكلاً جماعياً من أشكال التنظيم.

كانت تلك هي الطريقة التي ستجعل أفكارهما مقبولة. لقد حرضا من بروكسل على عقد اجتماعات دورية للجان المراسلة وبدءا مناقشات حول قضايا الاستراتيجية والتكتيك؛ على سبيل المثال، كيفية تواصل الشيوعيين الألمان مع الليبراليين الإصلاحيين. هذا النشاط كان أبلغ رد على اتهام ماركس وإنجلز بأن أداءهما مثل المثقفين. مع زيادة حدة التوتر في ألمانيا، واستمرار الحركة التشارتية في إنجلترا في النمو، استغرق الرجلان بالكامل في قضية التنظيم السياسي – وكانت كتاباتيهما تساهم في هذه المهمة الأساسية.

في ١ مايو ١٨٤٧، دعا فرع العصبة في لندن لعقد مؤتمر أممي في لندن. لم يستشيروا ماركس وإنجلز في هذا الأمر، ولكن أرسلوا مبعوثاً إلى بروكسل لإقناعهما بالإنضمام للعصبة وحضور اجتماع مايو. وكان هذا دليلاً واضحاً على نفوذهما السياسي المتزايد داخل الحركة. عُقد الاجتماع في أوائل يونيو ١٨٤٧؛ وكان بمثابة المؤتمر الأول لرابطة الشيوعيين الجديدة، التي عرّفت نفسها في الكلمة الافتتاحية "نهاجم النظام الاجتماعي القائم والملكية الخاصة، وهدفنا مجتمع الملكية العامة". وكان شعارها "يا عمال العالم، اتحدوا".

لم يتمكن من حضور المؤتمر سوى إنجلز ومعاونه الوثيق ويليام وولف؛ بينما بقى ماركس في بروكسل. ورغم ذلك كان تأثير حزب ماركس وإنجلز بادياً بوضوح، كما ازداد نفوذهما مع عقد المؤتمر الثاني للعصبة في نوفمبر من نفس العام. وفيما يخص الرابطة، فقد أخذت أهدافها في الوضوح أكثر فأكثر. حيث وصفها إنجلز قائلاً:

> "الشيوعية حركة وليست مذهباً؛ تنبثق من الحقائق لا من المعتقدات. وبقدر ما هي نظرية، بقدر ما هي تعبير نظري عن موقف البروليتاريا داخل هذا الصراع.. وشروط تحررها".

حضر المؤتمر المنعقد في نوفمبر وفود العديد من الدول تناقشت لمدة عشرة أيام حول نوع الحركة التي هم بصدد بناءها. ماركس وإنجلز كانا من بين الحضور، وعند التوصل لاتفاق نهائي في نهاية المطاف، كانا هما اللذين كُلِفَا بكتابة البيان التأسيسي للمنظمة الجديدة. في بروكسل بدا ماركس متردداً، أو متأخراً في الكتابة – وهو الرجل الذي باستطاعته كتابة مئات الصفحات في فترة وجيزة. لكن الموعد النهائي المتفق عليه في لندن دفعه للعمل. هكذا، في أواخر عام ١٨٤٨، كان البيان الشيوعي في طريقه للمطبعة، ورغم أن ماركس كتب الجزء الأكبر منه لكنه حمل اسميهما معاً - ماركس وإنجلز. وبوصوله للشارع، وفقط خلال أيام قليلة لاحقة اجتاح اللغط أوروبا.

٤- السباحة مع التيار الثوري

تعد واحدة من أعظم إنجازات ماركس وإنجلز كتابتهما للعمل الذي عبرّ بوضوح عن الروح الثورية لعام ١٨٤٨ حتى من قبل أن تتحقق. وهو دليل على النهج السياسي الذي اعتمداه كنقطة إنطلاق لهما نحو الواقع المادي في ذلك الوقت، فضلاً عن تحديد التوترات والصراعات الكامنة في العمق، التي بالكاد ترى. لقد رأوا، كما جاء في الافتتاحية الشهيرة للبيان الشيوعي أنّ:"شبح يخيم على أوروبا. شبح الشيوعية".

لم يكن كتيباً سياسياً معتاداً؛ بل كان بياناً عميقاً يحمل رؤية. ولقراء القرن الحادي والعشرون، ولكل الذين قرأوه منذ كتابته وحتى الآن، يبدو البيان معاصراً بشكل مذهل. فهو يصف العالم كما ندركه اليوم، لكن عندما كتب البيان الشيوعي كان العالم لايزال في مراحله الأولى.لقد كانت الرأسمالية الصناعية التي استوعبها ماركس بتبصر وعمق فقط في المرحلة الأولى من تطورها المحموم. لقد كشفا النقاب عن الاستغلال المقيت الذي هو أساس النظام برمته، والأثر اللاإنساني المهين الناتج عن الرغبة في مراكمة الأرباح؛ ومع ذلك، فقد فعلا الكثير قبل أن يدركا بالفعل مدى تأثيرهما الكبير على الأجيال اللاحقة.

> "البرجوازية لا تستطيع البقاء دون التثوير المستمر لأدوات وعلاقات الإنتاج.. هذا الانقلاب المتواصل في الإنتاج، والتزعزع الدائم في كل الأوضاع الاجتماعية، والقلق وعدم الاستقرار الدائمان، كلها أمورٌ ميزت البرجوازية عمّا سبقها من العصور. فالعلاقات الجامدة، البالية، مع كل ما يتعلق بها من إنحيازات وأفكار قديمة مهيبة، تتفكك كلها، وكل جديد ينشأ سرعان ما يصبح عتيقاً قبل أن يشتد عوده، كل ما هو قائم يتبدد هباء، وكل ما هو مقدس يدنس، ويجد الناس في نهاية الأمر أنفسهم مجبرون على النظر لأوضاعهم المعيشية، وعلاقاتهم المتبادلة بمزيد من التبصر.
>
> والبرجوازية في حاجة لسوق واسع دائم لتصريف منتجاتها في جميع أرجاء الكرة الأرضية، لذا عليها أن تعشش وتتجذر وأن تبني علاقات في كل مكان".

يتطلب هذا جهداً من جانب القاريء ليتذكر أن هذا العمل كُتب قبل أن تبدأ عملية التنقيب عن النفط في ابتلاع الشرق الأوسط وتحويله إلى ساحة حرب لمصالح الجانب الآخر من الكوكب، وقبل أن تترك نايك وكوكاكولا بصاماتهما على آلاف الثقافات المختلفة، كُتب قبل إنشاء بورصة لندن لتدمر حياة ملايين البشرعلى بعد آلاف الأميال. ومَكمن القوة الهائلة هنا ليس نابعاً من دقة التحليل فقط، ولكن يتجلى في الوصف الدقيق لطريقة عمل النظام الرأسمالي والقوى الدافعة له. في النهاية، إنه بيان شيوعي، لم يُصاغ ليشيد بالرأسمالية، ولكن ليدفنها. لكن، من هم حفارو قبرها؟

الإجابة على هذا السؤال تَرِد بعد قليل في البيان ذاته. فعندما برزت الرأسمالية من المجتمع القديم ابتلعت ورش العمل الصغيرة لحسابالمصانع كبيرة، وحولت صغار المزارعين والفلاحين إلى عمال في نظام الإنتاج المكثف للمزارع الحديثة التي تلبي احتياجات المدن النامية، كما أزاحت المجموعات التجارية الوطنية والدولية المتنامية صغار التجار جانباً. كل هذا قد ذاب لصالح الصناعات الناشئة داخل وحول المدن.

> "يتم تنظيم جموع العمال في المصانع تنظيماً عسكرياً. فالعمال، جنود الصناعة البسطاء، يوضعون تحت رقابة تراتبيّة كاملة، من ضباط وصف ضباط. هم ليسوا عبيداً الطبقة والدولة البرجوازية فحسب؛ بل هم أيضاً في كل يوم وفي كل ساعة عبيداً للآلة، ولمراقب العمل، وقبل كل شيء عبيداً للبرجوازي صاحب المصنع نفسه".

في البداية، ضغطوا عليهم للانتقال من عمل إلى آخر، وبسبب تخويف وتهديد أصحاب المصانع وملاحظي العمال، لم يقاموا بشكل منظم، رغم أنهم من وقت إلى آخر، وتحت وطأة الغضب والألم، قاموا بتحطيم الآلات.المفارقة هنا، بالطبع، أن الآلة ليست العدو – أنها من فقط وسائل خدمته. والتناقض كما فسره ماركس بوضوح أنه؛ كلما زادت قدرة البشر على الإنتاج، كلما اقتربوا من إمكانية

التحرر من عبودية العمل. لكن الرأسمالية انتزعت هذا الحق، والميكنة، التي حلت محل تحرير البشر، استعبدتهم أكثر وأكثر.لكن أيضاً هناك شيءٌ آخر يحدث، البروليتاريا، الطبقة العاملة، لا تُدفع صوب المدن فحسب؛ أنها تتركز أكثر وأكثر كلما أصبح الإنتاج آلياً وأكثر تطوراً. وهذا يمنح العمال القوة الجماعية التي تمكنهم من تنظيم أنفسهم ومواجهة أصحاب الآلة.

كتب ماركس البيان الشيوعي في بروكسل، وكتب الجزء الأكبر منه وهو جالس في مقهى الببغاء الأزرق بالميدان الرئيسي. أُرسل البيان للطباعة في فبراير ١٨٤٨؛ وحال وصوله للشارع، تواردت الأنباء من فرنسا حول متاريس وإقتتال في الشوارع؛ وأن رئيس الوزراء المكروه "جيزو" قد تقدم بإستقالته وفي صبيحة اليوم التالي تبعه الملك بالتنازل عن العرش. وفي غضون أسابيع لاحقة، كانت روح الثورة والتمرد قد حلت على برلين وسقطت حكومة أخرى. وبحماس كتب إنجلز: "لهيب إشتعال القصور الملكية الفرنسية يضيء فجر البروليتاريا.. تنهار الآن في كل مكان سيطرة البرجوازية.. وفي إنتظار، كما نأمل، أن تتبعهم ألمانيا".

أثارت الحرائق التي إندلعت في أرجاء أوروبا خوف السلطات في بروكسل، وأدى هذا لوضع نهاية مفاجئة لتسامحها مع ماركس. وبحلول شهر مارس، طُرد ونُفي إلى باريس، حيث أعلن ماركس الآن أنها ستكون مقر العصبة الشيوعية.انضم له إنجلز هناك، وبدأ الرجلان في التحضير للعودة إلى ألمانيا؛ لكن كانتهناك جدالات محمومة بين المنفيين العائدين، بعضهم، من عرفوا بـ "الفيلق الألماني" أرادوا أن يشنوا حملة مسلحة، وقد عارضهم ماركس بقوته المعهودة. بالنسبة لماركس كان الحل يكمن في الدفع لتنظيم الحركة العمالية، لكن داخل الحركة الأوسع الساعية للديمقراطية.

بحلول أبريل، عاد ماركس مرةً أخرى إلى ألمانيا وبدأ في الإعداد لنشر جريدة يومية بإسم "الرينانية الجديدة" في كولونيا، وكنتيجة لاعتياده التدخل في النقاشات السياسية الجارية داخل الحركات الثورية، باعت الجريدة في أوج رواجها، خمسة آلاف نسخة.كان الإصدار الأول للجريدة الذي كان قبل ذلك بأربع سنوات، قد حظى بدعم الطبقات الألمانية الوسطى المحبطة؛ بينما هذه المرة كانوا أكثر ترددا في دعم مشروعه الذي كان شديد النقد للمؤسسات الجديدة الناشئة عقب سقوط النظام القديم – مثل الجمعية الوطنية الجديدة.

شُكلت المجموعات العمالية في جميع أنحاء ألمانيا، لكن مطالبهم كانت تميل للاقتصار على الدفاع عن قضايا الديمقراطية. بصدور الجريدة في يونيو، اعتبرها كل من ماركس وإنجلز محور لتنظيم الشيوعيين. لكن ماذا عن الرابطة الشيوعية؟ شعروا انها أصغر من أن تكون ذات تأثير كبير على الأحداث التي تدفع بالآلاف نحو النشاط العام. ففي أوقات الاضطراب والتغيرات السريعة، الأمر الهام هو التحلي بقدرة على التأثير على الحركات الأوسع بدلاً من الانعزال أو معاداة الحركة. وصف ماركس الثورة في وأقاتٍ سابقة بأنها "تزامن بين التغيير الذاتي وتغيير الظروف المحيطة" فالتحولات الكبيرة في الوعي تأتي في سياق تغييرات مادية، لكنها لا تحدث تلقائياً. واعتماد الأفكار الجديدة واستيعابها مرتبط إرتباطاً وثيقاً بوجودها داخل الحركة. كانت تلك هي الحجة التي حفزت جدال ماركس الغاضب مع الاشتراكي الألماني جوتشاك الذي كان يحظى بشعبية كبيرة بين العمال، لكنه كان يشجع فكرة الاختلاف والانفصال.

الحقيقة أن الحركة العمالية الألمانية كانت في مرحلة من مراحل تطورها حيث خرجت لتنتزع الحقوق الديمقراطية. في بريطانيا، وعلى النقيض من ذلك، وصلت الحركة التشارتية إلى ذروة نفوذها، وبالتأكيد نظر إليها ماركس وإنجلز بإعتبارها طليعة النضال العمالي في أوروبا.وعلى حد سواء كانوا متفقين في أن العمل الموحد مع العناصر الليبرالية لا يعني التنازل لهم عن القيادة السياسية للحركة. وعند توزيع العدد الأول من جريدة "الرينانية" في إصدارها الجديد، كانت الأحداث في أوروبا تقفز نحو مرحلة جديدة مرة أخرى.

في فرنسا لم يكن هناك أثرٍ للوعود التي قطعتها الحكومة الليبرالية التي حلت محل النظام الملكي في فبراير؛ وبحلول يونيو، اجتاحت الجماهير الغاضبة الشوارع احتجاجاً على ذلك. كان في إنتظارهم تلك المرة قمع وحشي، وصف ماركس سلوك الربجوازية الفرنسية بالجبان، أما نظرائهم الألمان فاعتبروا

إدانته تلك موجهة ضدهم ومن ثم تراجعوا عن دعمهم للجريدة. وفي يوليو، شهدت ألمانيا أيضاً إحلال الحكومة الليبرالية نسبياً، بأخرى أكثر قرباً من الرجعية؛ وكان ماركس وجريدته من أول أهداف القمع، ومنعت من النشر إلا لمرة واحدة طيلة الشهور اللاحقة. لكن، كلما ازداد ما يهدد الحقوق الديمقراطية، من فيينا إلى برلين، كلما ازداد صخب ماركس وجريدته في المطالبة بحقوق العمال. كان ماركس يضع نصب عينيه استراتيجية كسب العمال وبناء الحركة العمالية – ما أطلق عليه فيما بعد "ديمومة الثورة". لكنه في الوقت نفسه كان يرفض ويجادل ضد الخطوات المتعجلة التي تؤدي إلى نزول الرجعية بثقلها قبل أن تستعد الحركة للمقاومة. كان ذلك وقت "التمهل الثوري وضبط النفس" كما أشار ماركس وإنجلز، إذ كان من الواضح بالنسبة لهم أن الثورة المضادة تستعد للهجوم.

في فيينا، واجهت الحركة هذا القمع في الشوارع، أما في ألمانيا فقد طالبت مظاهرات جماهيرية بدعم إخوتهم وأخواتهم في العاصمة النمساوية. هُزِمَت الحركة في أكتوبر، لكن تطلب الأمر شهرين آخرين قبل أن تعلن الثورة المضادة انتصارها في برلين، وفي ألمانيا كلها، بانقلاب فريدريك الرابع وتربعه على رأس الحكم. وخلال الشهور التالية، عمل ماركس وإنجلز بلا كلل، بالأخص من خلال الجريدة، لدعم القوى الديمقراطية، ولتوطيد التحالفات بين العمال والفلاحين، والأكثر أهمية من ذلك كان لتحليل وفهم الحركة في ألمانيا كجزء من الصورة العامة.

وعلى الرغم من سلسلة التراجعات داخل ألمانيا، حمّسَت النضالات، التي كانت لا تزال مستمرة في أرجاء أخرى من أوروبا، ماركس، وجعلته يشعر بالتفاؤل بالإمكانيات الثورية ويدعم منظمات مثل جمعيات بادن وفرانكفورت المؤقتة، والتي كانت لا تزال تقاوم.

وبحلول منتصف العام ١٨٤٩، كانت الحركة الثورية تعاني من حالة تراجع شديد، حيث سحقت قوات القيصر الانتفاضة المجرية، وفي ألمانيا كان التراجع يسيطر على كل شيء. في ١٦ مايو، أُجبِرَ ماركس على مغادرة كولونيا، ليتجه إلى باريس في اليوم التالي. انضم إنجلز في تلك الأثناء إلى القوات المتمردة في بادن. وقبل رحيلهما، طُبِعَ العدد الأخير من جريدة "الرينانية الجديدة" بكامله بالحبر الأحمر.

> "كان علينا أن نستسلم وننسحب من قلعتنا، لكننا نفعل ذلك ومعنا أسلحتنا وعتادنا... ورايانتا ترفرف... كلمتنا الأخيرة ستكون دائماً وفي كل مكان: تحرر الطبقة العاملة".

٥- النظر إلى الخلف.. وإلى الأمام

كانت اشتهار ماركس كمحرض وكزعيم فكري للانتفاضة الثورية يعنون الاشتباه به أينما ذهب. وبعد إجباره على مغادرة باريس، عاد مع عائلته إلى لندن في أغسطس ١٨٤٩. وبعد ذلك بفترة قصيرة، انضم إليه صديقه ورفيقه فريدريك إنجلز هناك. في الحلقات الداخلية، كان يُطلق عليه "الجنرال"، حيث انصب تركيز واهتمام إنجلز على مسألة تنظيم العصيان الثوري إثر خبراته في ألمانيا.

بالرغم من الهزائم التي مُنيت بها الحركات الثورية في أوروبا، إلا أن ماركس وإنجلز كانا متفائلين بآفاق انتفاضات جديدة في ألمانيا وفرنسا. عاشت عائلة ماركس، كما يتضح من مراسلات جيني بشكل جلي، في ضائقة مادية عصيبة، وما كان لديها من أموال كان يُصرف بسخاء لمساعدة الرفاق المهاجرين من ألمانيا ولتأسيس جريدة أخرى صدرت أعدادها الخمسة الأولى في يناير ١٨٥٠. عادت جيني حاملاً إلى لندن في الخريف، في سبتمبر، إلا أن ماركس لم يكن مهتماً سوى بآفاق بناء حركة ثورية تخرج من رحم الأحداث الاستثنائية لعامي ١٨٤٨ و١٨٤٩.

في ١٨٤٨، رأى ماركس وإنجلز أن العصبة الشيوعية ينبغي أن تُحل، فقد كانت هناك مهام أكثر إلحاحاً على الاشتراكيين حيث الاندماج في حركات أوسع في سياق الثورات، والنضال من أجل تحقيق نفوذ أيديولوجي داخل هذه الحركات. وبحلول العام ١٨٥٠، بات من الواضح أن المهام الأساسية صارت مختلفة، حينها جادلا بنفس القوة بأن العصبة يجب أن تؤسس من جديد. لقد أدركا أن من المهم للغاية فهم الأحداث والتعلم منها، تلك الأحداث التي كانت لا تزال حيّة في أذهان نشطاء الطبقة العاملة والاشتراكيين عبر أوروبا. حلل ماركس تلك الأحداث في عملين تاريخين، وهما "عريضة المجلس المركزي إلى عصبة الشيوعيين" (مارس ويونيو ١٨٥٠)، وسلسلة من المقالات المطوّلة نُشرت في الجريدة التي لم تستمر طويلاً (من يناير إلى أكتوبر) جُمِعَت بعد ذلك وأُطلق عليها "النضال الطبقي في فرنسا ١٨٤٨ – ١٨٥٠". الأخير كان عملاً تاريخياً مذهلاً، ولم يكن مجرد مجموعات من التفسيرات يقدمها مراقب حيادي منعزل عن الأحداث أو لم يكن له ضلع فيها. فماركس، قبل كل شيء، انتُخِبَ رئيساً للجنة التنفيذية للعصبة الشيوعية، وكان مساهماً نشطاً وواعياً في بناء منظمة اشتراكية تعلمت من خبرة ثورات ١٨٤٨ وبنت عليها، وكما قال ماركس "ماتت الثورة – تحيا الثورة".

استخلص ماركس من خبرات ١٨٤٨ الكثير من الاستنتاجات والرؤى التي تبدو معاصرة بشكل يثير الفضول. وعلى عكس الكثير من الكُتَّاب والمعلقين الذي كتبوا عن ١٨٤٨، ناقش ماركس هذه الأحداث من وجهة نظر الطبقة العاملة بقصد استخلاص النتائج السياسية والتنظيمية للمنظمة الاشتراكية التي يمكن بناءها في المستقبل. الاستنتاج الأول هو أن الثورة في البداية قد جذبت قطاعات هامة من الطبقة الوسطى في حركة موحدة مع الطبقة العاملة. إلا أن هذه الوحدة أثبتت أنها قصيرة الأمد في كلٍ من ألمانيا وفرنسا. في كلتا الحالتين، فزعت البرجوازية – وهي المستفيد الأساسي من إدخال الديمقراطية البرلمانية (المكسب الرئيسي من ثورات ١٨٤٨) – من أن الأمور قد لا تتوقف عند هذا الحد، ومن أن الطبقة العاملة وحلفاءها قد يقودوا العملية الثورية بشكل أسرع أبعد من ذلك، حيث تهديد الملكية الخاصة نفسها. لذا فقد انقلبت البرجوازية على حلفاء الماضي، وسعت لعقد المساومات والصفقات في حالات عديدة مع الطبقات الحاكمة القديمة التي أرادت إسقاطها بالأمس القريب.

وبالأخذ في الاعتبار أن المجتمع الرأسمالي لا يمكن أن تسقطه الطبقة التي لها مصلحة في الحفاظ عليه، فقد صار جلياً أن الطبقة العاملة قادرة على استكمال مسارها في استقلال عن حلفاء الأمس. "إنه لفي مصلحة البرجوازية الصغيرة إنهاء الثورة بأسرع ما يمكن... بينما في مصلحتنا، بل إنها مهمتنا، أن تكون الثورة دائمة". هذه الأفكار عن الثورة الدائمة صارت مميزة لتفكير ليون تروتسكي، لكن أصلها هو ها هنا في تناول ماركس للخبرات الثورية لعام ١٨٤٨. في تلك الأثناء التي كتب فيها ماركس ذلك، كان منخرطاً في جدال حاد مع البلانكيين، الذين استنتجوا أن على الثوريين أن يعملوا الآن في السر. شدد ماركس وإنجلز على هذه النقطة، وكان لزاماً أن تنظم الطبقة العاملة نفسها بشكل مستقل عن البرجوازية، وضعاً في الاعتبار أن البرجوازية ستدعو، آجلاً أم عاجلاً، لوضع حد للحركة. من الممكن أن يحدث ذلك بالقدر الذي تعي به الحركة العمالية مصالحها الطبقية وتدركها جيداً، وتعي في الوقت نفسه مصالح الطبقات الأخرى في المجتمع، وكيف تتحقق الثورة. هذا الوعي لا يتحقق فقط

خلال اللحظات الثورية، بل أنه يُشكِّل ويبلوِر استجابة الطبقة العاملة للحظات الثورية حينما تأتي (أو حينما تأتي مجدداً).

صار الآن بناء حزب ثوري للطبقة العاملة مهمة اللحظة. ربما، كما أدرك إنجلز وكتب في مقدمة جديدة لكتاب "النضال الطبقي في فرنسا" بعد وفاة ماركس، كان ماركس مفرطاً في التفاؤل بآفاق الثورة في ذلك الوقت. لكنه كان محقاً في إصراره على أن مهمة الثوريين هي بناء الحزب الذي يحوز قيادة الحركة الثورية ويقودها إلى منتهاها. وهذا المنتهى كان، كما عبّر عنه ماركس هنا، "ديكتاتورية البروليتاريا".

قليلة هي كلمات ماركس التي تعرضت لسوء الفهم وسوء التفسير مثلما تعرضت له العبارة السابقة. اتخذت كلمة "ديكتاتورية" معنى متجهماً وكئيباً في عالم شهد النازية والستالينية وشتى أشكال الاستبداد التي أفرزتها الرأسمالية في المائة عام الأخير تقريباً. لم يكن لهذه الكلمة نفس الوقع حينما استخدمها ماركس. فقد كان على سبيل المثال يتحدث في الحقيقة عن الدولة حين استخدم وصف الأداة الحاسمة في الحكم الطبقي بـ"اللجنة التنفيذية للبرجوازية". في ألمانيا وفرنسا، الكثير من الوزراء في حكومات ما بعد الثورة كانوا لوقت قصير حلفاءاً للطبقة العاملة في النضال من أجل الديمقراطية، لكنهم انقلبوا ضد العمال بشراسة ووحشية قصوى. تساءل ماركس، أي دولة يمكن أن تحمي مصالح الأغلبية؟ وقد أجاب "الحكم السياسي للطبقة العاملة وحدها مع كافة التغييرات الثورية في الظروف الاجتماعية التي لا تنفصم عنه". فقط هذه الدولة هي التي تستطيع الدفاع عن مكتسبات العمال، والإشراف على تحول الظروف الاجتماعية لضمان هذه المكتسبات. في هذه المرحلة، كان لدى ماركس فكرة عامة عن الأمر؛ أي نظرية. وكان لكوميونة باريس في ١٨٧١ أن تكشف الحقيقة.

بالطبع كان ماركس مادياً. وبرغم أن وعي وتنظيم العمال، أي الطبقة الثورية، يمثل القوة الدافعة في إسقاط النظام القديم وبناء الجديد، إلا أن ذلك وحده ليس كافياً. وكما كتب ماركس فإن "البشر يصنعون التاريخ، لكنهم يفعلون ذلك في ظروف لم يختاروها بأنفسهم". تثبت الظروف المادية أنها حاسمة في العمليات الثورية أيضاً؛ مستوى تطور الاقتصاد الرأسمالي، وحجم الطبقة العاملة وثقلها النسبي، استمرار الأزمة الاقتصادية، كل هذه اعتبارات حاسمة. إن نضج الطبقة العاملة لا ينتج هكذا فقط بمجرد التثقيف السياسي، لكن أيضاً بثقلها الموضوعي بين الطبقات المستَغَلة. وكلما تطورت الصناعة وتقدمت الرأسمالية، ينمو تركيز العمال في مواقع عمل أكبر وأكبر، وتحول الفلاحون والحرفيون إلى عمال ليس لديهم مصدر عيش آخر سوى قوة عملهم، هذا كل ما لديهم لبيعه. وبنفس الكيفية، هؤلاء وحدهم هم منتجو الثروة، لكنهم لا يتلقون شيئاً يُذكر منها. هذا هو التناقض في القلب من الرأسمالية.

وبالنظر إلى ذلك الوقت الذي كان يموج فيه العالم بالتغيرات، أوضحت تحليلات ماركس الدقيقة الرابط بين الثورة والأزمة داخل النظام الاقتصادي. هذه الأزمة ليست نتيجة خطأ عابر في النظام وليست مجرد صدفة، بل نتيجة للصراعات الداخلية في الرأسمالية. أشار ماركس من قبل إلى تناقضات الرأسمالية على نحو مبهر في "البيان الشيوعي" الذي ناقش الحاجة الدائمة لدى الرأسمالية لتثوير الإنتاج. لقد استنتج أن غياب الأزمات، أو بتعبير آخر موجة الرخاء والنمو الاقتصادي، في إنجلترا في نهاية عقد أربعينات القرن التاسع عشر، هو ما فرَّغَ الحركة التشارتية من مضمونها الثوري. وفي المقابل، في فرنسا، لم تكن الطبقة العاملة قوية أو مركزية في الاقتصاد بما فيه الكفاية لتضمن فرصتها الثورية.

بالنسبة لمادي ثوري مثل ماركس، كان واضحاً أن "الأفكار لا تغير التاريخ" إلا إذا تجسّدت في قوى اجتماعية حية وفاعلة في الظروف المادية التي تجعل مثل هذا التغيير ممكناً. وقد كان فهم العوامل التي تدفع بالرأسمالية إلى الأمام، والظروف التي تنتج الأزمة، مهمة جوهرية لماركس، تماماً مثل بناء منظمات الطبقة العاملة والإعداد السياسي لأعضائها.

٦- التراكم.. التراكم

بحلول منتصف العام ١٨٥٠، بات من الواضح لكارل ماركس أن الثورة لم تعد على جدول الأعمال. كانت الرأسمالية في أوروبا تتحرك تجاه مرحلة من النمو والتمدد، وكما أثبتت الأحداث في ألمانيا في ذلك العام، كانت الديمقراطية البرجوازية تحرر نفسها من بقايا النظام القديم. دبت جدالات مريرة داخل العصبة الشيوعية، حيث كان هناك الكثيرين في قيادة التنظيم على قناعة بأن الثورة لا تزال إمكانية راهنة، وكل ما تحتاجه هو الاستعداد بالسلاح. وحتى أثناء بعد أحداث ١٨٤٨، صُبغت الجدالات بصبغة قومية، حيث أصر الرفاق الألمان على التجذير المستمر لطبقتهم العاملة القومية.

أما بالنسبة لماركس وإنجلز، فقد كانت هناك قضيتين أساسيتين. أولاً، كما ذكرا بوضوح في "البيان الشيوعي"، ينبغي أن تتخذ الحركة الثورية للعمال طابعاً أممياً. ثانياً، قامت الثورة نتيجة تشابك العوامل الذاتية (وعي العمال ونفوذ الأفكار الثورية بينهم)، مع العوامل الموضوعية (أزمات النظام).

> "استُبدل المنظور الشامل والأممي للبيان الشيوعي بوجهة النظر القومية الألمانية، كما كانت هناك محاباة للمشاعر القومية لدى الحرفيين الألمان. تم التخلي عن وجهة النظر المادية المُتضمَنة في البيان، لصالح المثالية. فيما لم يعد يُنظر للثورة باعتبارها نتاج للحقائق الملموسة في الواقع، بل نتيجة للجهود الإرادية. وبينما نقول للعمال: أمامكم ١٥ أو ٢٠ أو ٥٠ عاماً من الحرب الأهلية لتحويل الأوضاع ولتدريب أنفسكم على ممارسة السلطة، يقولون: علينا أن نأخذ زمام السلطة الآن أو أن نخلد إلى أسرَّتنا".

كانت تلك أوقاتاً عصيبة بالنسبة لماركس؛ كان وضعه المالي ضائقاً، وكان يضطر وعائلته للانتقال من مكان إلى آخر، لقد بدا أن الشيء الوحيد الذي أنقذ ماركس وعائلته هو الدعم الدائم والمتفاني من جانب إنجلز. وبحلول نهاية العام، توفي ابنهم الحبيب هاينريتش (الذي أطلق ماركس عليه إسم فاوكسي)، وبعدها بستة أشهر أنجبت خادمتهم المقيمة معهم ولداً سُمِّيَ فريدي، في الأغلب كان ابناً لماركس، إلا أنه لم يعترف به قط، فيما أعلن إنجلز أبوّته له بغية حماية صديقه وزميله ماركس - لم تكن تلك المرة الأولى التي يقدم فيها إنجلز تضحيات من أجل ماركس، ولا الأخيرة.

اتخذ الآن ماركس مكانه المعتاد في غرفة القراءة في المتحف البريطاني، وكان قد بدأ بالفعل في المشروع الطموح لتعريف وتوصيف السمات العامة للنظام الرأسمالي ككل، حيث تطوره التاريخي، والاتجاه الذي يسير فيه. بعض ممن شاركوا في الحركة (بالأخص أولئك الذين يقضون الليالي في التخطيط للمؤامرات والتمردات) رفضوا ذلك، واعتبروه تخلياً عن السياسة. إلا أن ماركس وإنجلز لم يتخليا على الإطلاق عن المنظمة السياسية، بل في الحقيقة لم يتوقفوا قط عن محاولات بناء الحزب حتى إنشاء الأممية الأولى في ١٨٦٤. لم يتوقف ماركس بالطبع عن السجال مع الاشتراكيين الآخرين، ولم يتوقف أيضاً عن كتابة أو إصدار الكراسات والمقالات. وفي الحقيقة، كانت تلك السجالات والنقاشات، التي جرت في فترة الركود بعد انفصالهما عن العصبة الشيوعية، تُعتَبر جزءاً من عملية بناء حزب جديد.

لكن ما لا شك فيه أن ماركس قد اعتبر، في هذه المرحلة، دراساته وأبحاثه في النظام الرأسمالي المهمة السياسية الرئيسية. لم يكن ذلك بغرض التعرف على العدو، بل كان الهدف هو فهم القوى الدافعة للنظام الرأسمالي والتوترات والتناقضات التي تنتج عن تطوره. وبالوضع في الاعتبار حتمية أزمات النظام، كان من الضروري أن يكون قادراً على ترقب - أو حتى توقع - متى وأين ستحدث التشققات. كل ذلك كان جزءاً من مهام إعداد الشيوعيين للمعارك المستقبلية في النضال الطبقي.

كان ذلك وقت الدراسة والقراءة، وقد غدا ماركس وجهاً معتاداً في المتحف البريطاني. كان المهمة التي رسمها لنفسه جامحة الطموح؛ أن يفهم الطريقة التي تعمل بها الرأسمالية، كنظام عالمي، وتتطور عبر الزمن، بغرض الكشف عما أطلق عليه "قوانين الحركة". لكن ذلك لم يكن كل شيء، فالمشكلة أن ما قد يظهر على السطح ربما ليس هو ما يحرك النظام بشكل فعلي من داخله. فأولاً وأخيراً، استفاض ماركس في أعماله الأولى في تحليل الطرق التي غالباً ما أخفت بها الكثير من الأفكار والتفسيرات آليات وقوانين الرأسمالية - وهذا ما كان يعنيه بـ"الأيديولوجيا". نحن ندرك تماماً، من العصر الذي

نعيش فيه اليوم، أن القرارات الاقتصادية التي تتخذها أطرافٌ قوية تتمتع بالسلكة بغرض خدمة مصالحها، تُقدَّم إلى العالم بوصفها عملية طبيعية. حينما تُعرَض تلك الإحصاءات المبهمة في خاتم كل نشرة أخبار، لتصف "حركة السوق"، تُحشَر بين أنباء الكوارث ونشرة الأرصاد الجوية، وكأنهم جميعاً يندرجون في نطاق الأمور التي لا نملك قدرة التحكم فيها.

يقول ماركس: "يتحدث الاقتصاديون البرجوازيون عن العلاقات داخل عملية الإنتاج البرجوازي وكأنها ثابتة وأبدية غير قابلة للتغيير". لكن ماركس نفسه كان قد أوضح أيضاً أن حركة رأس المال تُحدَّد وتُقرَّر بناءاً على مصالح طبقة واحدة تعارض من ينتجون ثرواتها الذين على الرغم من ذلك ليس لديهم أي سيطرة على النظام أو على الطريقة التي يعمل بها.

وفي الكتابات التي أنجزها أثناء فترة شبابه، وصف ماركس، في الأغلب على نحو متعاطف كثيراً، خبرات العمال في ظل الرأسمالية، حيث يمثل الاغتراب الذي يعيشونه داخل المجتمع حالة من فقدان القوى يشعرون بها. السؤال هنا؛ أي ظروف ترسخها الرأسمالية في المجتمع تنتج هذه العلاقة بين مالكي رأس المال من ناحية ومنتجي الثروة من ناحية أخرى؟ وما هي القوى الدافعة الحقيقية التي تحرك النظام بكليّته إلى الأمام، بغض النظر عن الأمثلة الفردية لسلوك هذا الرأسمالي أو ذلك أو معاملتهم للعمال؟ ما هي العلاقة بين طبقة الرأسماليين وطبقة العمال في النظام الرأسمالي العالمي؟

الإجابة على هذه الأمثلة بالطبع لا يمكن إيجادها في الصيغ المجردة، فماركس كان قبل أي شيء مادياً، وهكذا رسم أطروحاته وأرساها بناءاً على مراقبة سلوك القوى الحية الفاعلة في التاريخ الحقيقي، فيما كان اختبار النظرية عن طريق الممارسة هو منهجه لاستيضاح الحقيقة المادية وتطوراتها عبر الزمن. وهذه التطورات، كما في كل حركة تاريخية، هي تطورات جدلية تنتج تناقضات وصراعات لا يمكن حسمها إلا من خلال تغيير المجتمع. وتظهر هذه التناقضات والتوترات في صورة أزمات دورية يمكن خلالها أن تحقق الحركة الثورية مكاسب هامة، فقط إذا ترقبتها وفهمت طبيعتها وأعدت نفسها تنظيمياً لانتهاز الفرص التي تقدمها. لذا، بالنسبة لماركس، كانت فترة الدراسة والبحث تمثل إسهاماً مادياً مباشراً لهذا المشروع السياسي.

> "يسر حزبنا أن يحظى بالفرصة مرة أخرى من أجل الدراسة. إنها لميزة عظيمة أن أسسه النظرية تمثل رؤية علمية جديدة تطويرها يشغله بما يكفي. ولهذا السبب وحده لا يمكن أن يكون حزبنا مُحبَطاً وهامداً مثل "الرجال العظام" في المنفى".

كلمة "حزبنا" هنا يقصد بها ماركس فقط نفسه وإنجلز. وعلى الرغم من البُعد الشديد لآفاق النضال، إلا أن معنوياتهما لم تنهار. بالطبع كان صمود ماركس ومرونته ملحوظَين، بالوضع في الاعتبار الأيام السوداء التي قضاها هو وعائلته في الفقر وانعدام الأمان، علاوة على الانتقال المستمر من منزل لآخر، والمرض المتكرر لأفراد العائلة، انتهاءاً بوفاة إدجار الصغير. وفقط كان الدعم المتفاني الناكر للذات من جانب إنجلز هو ما حفظهم من الانهيار.

قضى ماركس الأعوام العشرين التالية في كتابة "رأس المال" الذي لم يصدر الجزء الأول منه حتى ١٨٦٧، ولم يتوفر بكامله للجمهور حتى بعد وفاة كاتبه. أول جزء طُبع وصدر (في ١٨٥٩) كان "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي".

٧- تحديد الوَحش

إذن، ما هي الأفكار الأساسية لهذا العمل الاستثنائي؟

> "المجتمع البرجوازي العصري، الذي قام على أنقاض المجتمع الإقطاعي، لم يلغ التناحرات الطبقية، بل أحل فقط محل الطبقات القديمة طبقات جديدة، وحالات اضطهاد جديدة، وأشكالاً جديدة للنضال".

أولاً، الرأسمالية هي مرحلة في تطور وتغير التاريخ. لقد ظهرت في ظروف تاريخية معينة، ومثل كافة المجتمعات الطبقية السابقة عليها، كانت تناقضاتها الداخلية تفسّخها. ثانياً، البحث عن الوسائل التي تجعل العمال أكثر إنتاجاً بشكل متزايد، حيث "التثوير الدائم للإنتاج" الذي علّق عليه ماركس بأسلوب أدبي في "البيان الشيوعي". ثالثاً، المصدر الآخر للربح هو العمل نفسه، أو بالأحرى استغلال العمل. يميل العالم المعاصر لتناول مسألة الاستغلال كقضية أخلاقية، باعتباره إساءة استخدام للسلطة، بينما تناول ماركس هذا المصطلح خصيصاً لتوصيف العلاقة بين رأس المال والعمال، حيث يسعى رأس المال لاستخلاص قيمة أكبر وأكبر من العاملين، القيمة التي تزيد عما هو ضروري للإبقاء عليهم أحياءاً يعملون – أي فائض القيمة.

تلخصت إجابة ماركس في المجتمع الطبقي، حيث تملك طبقة صغيرة وسائل الإنتاج (أطلق عليها اسم البرجوازية، أي الطبقة الرأسمالية)، وأغلبية عظمى لا تملك سوى قوة عملها (وهذه هي البروليتاريا أو الطبقة العاملة).

داخل كل طبقة هناك الكثير من التنوع، في الجنس والعرق والمظهر. هناك رؤساء خيريون وآخرون مستبدون، ليبراليون وعنصريون وقوميون ومنفتحون. وكذلك بين العمال، هناك المتعلمون وغير المتعلمين، الماهرون وغير الماهرين، بعضهم سود وآخرين من البيض، رجال ونساء. إلا أنهم جميعاً ينتمون إلى نفس الطبقة بسبب علاقتهم بموارد المجتمع والطريقة التي يُنظمون بها؛ البرجوازيون جميعهم يتحركون بشكل موحد للدفاع عن ملكيتهم لثروات المجتمع، علاوة على استخدامهم لسلطتهم وسطوتهم لتنظيم عملية الإنتاج الاجتماعي من أجل تحقيق أرباحهم. "التراكم، التراكم.. هذه هي كلمة السر".

بهذه العبارة البسيطة، لخّص ماركس العوامل المحركة للرأسمالية. أولئك الذين يملكون وسائل الإنتاج ينتمون إلى نفس الطبقة، لكنهم أيضاً خصومٌ يتنافسون على الأرباح والهيمنة على الأسواق. تعمل الرأسمالية من أجل الربح. لكن الرأسمالي ليس مجرد شخص يملك وسائل الإنتاج، فهو يستخدمها لجلب المزيد من الربح والمال وللتقدم على منافسيه، والرأسمالية هي طريقة تنظيم النظام الاقتصادي التي تجعل ذلك ممكناً.

بالطبع هذا النظام (الذي أطلق عليه ماركس نمط الإنتاج) يتسم بالكثير من التعقيد، فهو لا يتطلب فقط طريقة معينة في الإنتاج نفسه، بل أيضاً أشكالاً وهياكل متنوعة للحفاظ عليه قائماً، بدءاً من الوسائل التي تنقل الناس من وإلى العمل، إلى تعليمهم كيف يستخدمون الميكنة الجديدة، مروراً بخلق سلسلة من الأدوات الثقافية التي تقنع أولئك المفترض بهم القيام بالإنتاج أن هذا العالم الذي يعيشون فيه هو أفضل ما يمكن تحقيقه، برغم الفقر الذي يعانونه. هذه هي الأبعاد الذي تناولها ماركس وعكف على تحليلها.

لكن في القلب من كل ذلك يقبع الإنتاج نفسه. كيف يمكن للرأسماليين أن يجنوا أرباحهم؟ من الواضح أنهم لا يقومون بأي عمل بأنفسهم، فكل ما عليهم هو أن يستثمروا أموالهم، ويشتروا الآلات ويوظّفوا بعض الناس ويقرروا ما يُنتج وكيف. أما الإنتاج الحقيقي فيقوم به العمال الذين يتقاضون أجوراً مقابل العمل على الآلات. في الوقت الذي عاش فيه ماركس، كانت أعداد من يعملون على الآلات تنمو بشكل مطرد. بالطبع كان من السهل على ماركس أن يتخيل المصانع الضخمة في القرن العشرين حيث يعمل الآلاف في إنتاج البضائع على خطوط إنتاج كبرى. أما اليوم، فخطوط الإنتاج هذه يمكن أن تعمل بواسطة عدد قليل للغاية من الناس على خطوط إلكترونية – حيث يقوم الروبوت بأغلب العمل، حتى أنه يمكن أن يرسم اللوحات مثل بيكاسو.

إلا أن الحال يبقى على ما هو عليه، قديماً واليوم على حد سواء، فالإنتاج عملية دقيقة يشارك فيها أناسٌ من مختلف أنواع العمل. مصانع القطن في القرن التاسع عشر، على سبيل المثال، كانت تستخدم القطن الذي يجمعه عمال السخرة في مصر والهند، ومن ثم ينقله عمال آخرون إلى لانكاشاير في بريطانيا، بالإضافة إلى آخرين (بأعداد أقل مما هو الحال اليوم) يعملون على تغذية وتعليم وتمريض الأيدي العاملة في المصانع، وبالتالي فقد قامت جيوشٌ من الناس للتعامل مع ضحايا نظام وحشي وغير إنساني. ما وحَّد ويوحِّد كل هؤلاء الناس في مختلف مراحل سلسلة الإنتاج – من العاملين بمراكز الاتصالات إلى عمال الخدمات الاجتماعية إلى سائقي الحافلات – هو علاقتهم بذاك النظام. إنهم جميعاً يبيعون قوة عملهم لمن يملكون وسائل الإنتاج مقابل أجر.

النقطة الأساسية بالنسبة للإنتاج الرأسمالي هي أن العمال ينتجون أكثر بكثير مما يتقاضون من أجور. والفرق بين قيمة ما ينتجون وما يتلقون من مال في صورة أجر، هو ما أطلق عليه ماركس "فائض القيمة". وهذا ما يذهب إلى خزائن الرأسماليين.

يرى الرأسماليون أن هذه الأموال من حقهم، إذ أنهم بحاجة إلى الاستثمار مرة أخرى، وبحاجة أيضاً إلى التعويض عن "المخاطر" التي يتعرضون لها في استثمار تلك الأموال. الخبرة الحديثة توضح لنا بشكل جلي أن الاستثمار حينما ينهار، ويفقد العمال وظائفهم، يتلقى رؤساء الشركات ومديروها تعويضات كبرى، وينعمون بالحماية من آثار "المجازفة"، بعكس العمال.

في الحقيقة، بعدما يقومون بتجديد الآلات ويدفعون ما عليهم للبنوك، تتبقى لهم الأرباح التي يُنفق جزءٌ منها على الحفاظ على أسلوب حياة البرجوازية. لكن جزء آخر يُسخَّر للاستثمار في آلات وميكنة جديدة تنتج قدر أكبر من فائض القيمة وتمنح المستثمر الأسبقية في المنافسة. من المفترض أن كل رأسمالي يفعل الشيء نفسه، لكن ما الذي يدفع بأحدهم للتقدم على الآخر؟ الإجابة هنا بسيطة؛ الرأسمالي القادر على اعتصار عماله المنتجين، من أجل إنتاج أكبر، يسبق منافسيه.

يُساق الإنتاج الرأسمالي بالحاجة العنيدة الجامحة لمراكمة الأرباح أكثر من الرأسماليين الآخرين. كلمات السر إذن هي التراكم والمنافسة. وإذا كان العمال في أحد المصانع ينتجون أكثر من زملائهم في مصنع آخر، مقابل نفس الأجر، فهذا يعني زيادة أرباح المصنع الأكثر إنتاجاً. كما أن هذا يعني أيضاً السيطرة بشكل أكبر وأكبر على موارد الأرض، استهلاكها وتدميرها، في سباق السوق.

تُزال الغابات، ويُحرق الوقود الحفري، ويكاد النفط والغاز أن ينفذا من الأرض، وتُستنفذ المزيد والمزيد من الأراضي في هذه العمليات. المصانع الكبرى، بعد أن كانت موجودة فقط في أوروبا وأمريكا، صارت اليوم أيضاً في الصين وكوريا والمكسيك، إلخ، تستخدم وتستهلك اليوم كافة موارد الغد. لماذا لا يلتفتون لذلك؟ لماذا يرفض رئيس الولايات المتحدة إدراك ما هو جليّ للملايين من الناس؟ في الحقيقة، خلال السباق المحموم في السوق، لا يفكر الرأسمالي في أيٍ من هذه الأمور، لأن كل منافسيه يفكرون بنفس الطريقة. هذه واحدة من القوى الدافعة للرأسمالية التي شرحها ماركس، وهي بالتأكيد لها أثر شديد التدمير على العالم بأسره. وبالطبع لا تهتم شركات كبرى مثل هاليبرتن أو بيتشيل بما سيحدث العام المقبل، طالما أن أرباحاً طائلة يمكن تحقيقها اليوم. هذه هي كلمة السر.

سؤالٌ أبعد من ذلك يطرح نفسه؛ مِن أجل مَن تُنتج هذه المنتجات؟ في مجتمع يستجيب لاحتياجات الناس ويلبيها، من الطبيعي أن يتعلق قرار ما يُنتج بما يحتاجونه - تنتج المصانع غذاءاً للجوعى والمحرومين، وسيارات إسعاف للمرضى، إلخ. إلا أنه من الواضح بجلاء أن الرأسمالية لها اعتبارات أخرى تسيطر عليها، وهكذا نجد أن النقص الهائل في سيارات وإعدادات الإسعاف يتوازى مع فائض ضخم من السلاح، وبينما يجوع الملايين في العالن نتيجة نقص الغذاء، يتم التخلص من كميات غزيرة بشكل يصعب تخيله من الغذاء غير الضروري وغير المرغوب فيه. ذلك لأن السلع تُباع وتُشترى في السوق، وليس هناك علاقة مباشرة بين المنتج والمستهلك، علاوة على أن قرار واختيار ما يُنتج يتحدد بشكل حصري فقط على ما يدر الأرباح. لكن هذا السوق تنافسي أيضاً؛ أكثر من شركة (رغم تناقص أعداد هذه الشركات) تنتج نفس السلع، وما يعطي الأسبقية لشركة على أخرى في السوق هو تكلفة العمالة. وهذا هو السبب وراء نقل الشركات متعددة الجنسيات الإنتاج من أوروبا والولايات المتحدة، حيث

التنظيمات النقابية القوية والتاريخ الطويل من النضال أدى إلى زيادة الأجور، إلى بلدان ذات مستويات معيشية منخفضة وأجور أقل، ومقاومة اجتماعية أكثر تراجعاً.

لذا فإن الرأسماليين، في سباقهم وتنافسهم المحموم على السيطرة على الموارد وقوة عمل البشر، يتجازون الحدود القومية ويمتدون عبرها، ويتصارعون على الهيمنة على إمدادات المواد الخام. إن طبيعة الرأسمالية قائمة بالأساس على التصارع والتناقض.

٨- الأزمة والفرصة

نظر ماركس إلى الماضي، إلى ١٨٤٨ حين تمخضت الأزمة الرأسمالية عن ردة فعل ثورية. وبرغم أن النتيجة النهائية لم تأتِ بما كان يأمله، إلا أنها أظهرت بوضوح كلاً من قوة الطبقة العاملة وجبروت الحكام. كانت تلك دروساً هامة يمكن الاستفادة منها في الأزمة المقبلة، التي أوضحت دراسات ماركس أنها نتيجة لا مفر منها لفوضى النظام الرأسمالي. وفي المرة المقبلة، ينبغي أن تكون حركة الطبقة العاملة مستعدة.

في ١٨٥٧، دبت أزمة اقتصادية في أركان النظام. كان الأمر مثيراً للسخرية بالنسبة لماركس؛ فجيني كانت قد تلقت قبل ذلك بعام واحد ميراثاً صغيراً مكّنهم من تسديد ديونهم والانتقال إلى سكن أفضل. هذه الأزمة لم تسفر عن أي موجة من النضال، في حين كانت بعض التحركات، بالأخص في أوروبا حيث تنمو الطبقة العاملة بأعداد كبيرة في فرنسا وألمانيا، وتولدت أشكال سياسية جديدة ملأت الفراغ السياسي الذي خلّفه غياب تنظيم الطبقة العاملة الأكثر راديكالية قبل ذلك بعقد من الزمان – الحركة التشارتية. في بريطانيا عام ١٨٦٣، تجمهر العمال في تجمعات كبيرة لتأييد الشمال في الحرب الأهلية الأمريكية – ما كان يعني دلالات هامة بالنسبة لماركس. قوبل الراديكالي الإيطالي جاريبالدي بترحيب شديد في تجمعات جماهيرية في لمدن، واندلع تمرد في بولندا حظى بتأييد هائل، كل هذه التجمعات قد نظمها مجلس نقابات لندن الذي عمل مع ماركس وإنجلز لسنوات.

في سبتمبر ١٨٦٤، دعت نفس المجموعة من القيادات العمالية إلى اجتماع أممي، من أجل تحفيز التضامن عبر الحدود القومية، وللتأكيد على أن العمال من مختلف القوميات لن يتلاعب بهم الرأسماليون ضد بعضهم. ورغم أن ماركس لم يكن عضواً مؤسساً لما أصبح فيما بعد "جمعية الشغيلة الأممية"، إلا أنه دُعِيَ فيما للمشاركة. لم يكن منخرطاً في النشاط منذ عام أو اثنين، لكنه انتهز الفرصة لأن الكيان الجديد كان، على حد تعبيره، "يضم أناساً ذوي ثقل"، مشيراً إلى القيادات العمالية – رغم أن من حضروا الاجتماع لم يكونوا كلهم من الطبقة العاملة، أو حتى ملتزمين جميعاً بقضية العمال الأممية. كان عليه أن يسرع، أكثر من أي وقتٍ مضى، في إرساء القواعد والمبادئ التي طُلِبَت منه كتابتها. حتى أولئك الذين أدركوا الدور الرئيسي لماركس والدور الذي يمكنه الاضطلاع به، كانوا متشككين في الاشتراكية، وغير مقتنعين على الإطلاق بالحاجة إلى الثورة. القادة النقابيون الإنجليز، مثلاً، كان هدفهم هو حق الاقتراع العام. الحاضرون من فرنسا كانوا متأثرين بشدة بخصم ماركس القديم برودون، أما الإيطاليون فقد كانوا على قناعة بأفكار مازيني الجمهورية الراديكالية.

إلا أن تلك مثّلت فرصة سياسية استثنائية لبسط نفوذ الأفكار الثورية بين قيادات الحركة العمالية، حتى برغم أن الحركة في هذه المرحلة كانت لا تزال في طور الجنين. كما أن دراسات ماركس أثناء كتابته "رأس المال" وطّدت لديه فهمه لفكرة أن نشأة الرأسمالية الأوروبية تؤدي أيضاً إلى نمو الطبقة العاملة عددياً، وإلى تعميق الصراعات بين رأس المال والعمال على نحو لا مفر منه. وقد كشف تناوله لخبرات نضالات العمال في "خطاب إلى الأممية" أن الأمور تتطور بالفعل حتى قبل ١٨٤٨. ما أسفر عنه ذلك التحليل هو القناعة التامة والمركزية بأن أممية حركة الطبقة العاملة، حتى في تلك المرحلة، أمرٌ لا غنى عنه في النضال من أجل الاشتراكية. أوضح ماركس، في القواعد التي كتبها، أن ما من قواعد ثابتة وجامدة ستُطبق على القطاعات المختلفة، لكن بنفس القدر أيضاً كان واضحاً لماركس وإنجلز أن الحاجة إلى اتجاه مركزي موَّحد في الحركة ستظهر في النقاشات داخل الأممية. وبالفعل، أظهرت مقدمة قائمة القواعد الجديدة أكثر أفكار ماركس مركزية:

> "تحرر الطبقة العاملة ينبغي أن تنجزه الطبقات العاملة نفسها... والنضال من أجل تحرر الطبقات العاملة لا يعني النضال من أجل امتيازات طبقية، بل من أجل حقوق وواجبات متساوية، ومحو الحكم الطبقي برمته".

شدد الخطاب على أن الهدف هو "ظفر الطبقة العاملة بالسلطة السياسية"، تلك العبارة التي فهمها المشاركون المختلفون بطرق مختلفة، وقد فتح ذلك الكثير من النقاشات المطوّلة. وبعد ذلك بعام، حينما أنكر بعض المندوبين الفرنسيين حق ماركس في الحضور، سعى أحد المندوبين النقابيين الإنجليز

لتذكيرهم بأن "ماركس قد كرّس حياته كلها لنصرة الطبقات العاملة"، وطالَبهم آخر بإتاحة "كل الطرق الممكنة لكل من درس الاقتصاد السياسي من منظور الطبقة العاملة للانضمام إلى مؤتمراتنا".

قوبل ماركس بمعارضة من قبل أتباع برودون، الذين كان أغلبهم عمالاً، لكن ليسوا في الصناعات الرئيسية الكبرى للرأسمالية الحديثة. امتهن هؤلاء الحرف الماهرة، وكانوا مرتبطين بشكل كبير بأفكار برودون، حيث تأسيس مجتمعات مشتركة كبديل موازٍ للرأسمالية. وكان ذلك بالطبع يتعارض مع إصرار ماركس على إنشاء منظمة ثورية للعمال لتحدي سلطة الطبقة البرجوازية وبناء نظام جديد للمجتمع تسوده الأغلبية ولا يكون فيه الربح هو القوة الدافعة التي تُشَكِّل المجتمع وتنظمه.

في ألمانيا، اشتعلت المعركة مع حزب الزعيم الاشتراكي لاسال (الذي كان قد توفى قبل ذلك)، فيما كان إصدار جريدة "العمال الاشتراكيون الديمقراطيون" بقيادة كارل ليبكنيخت، الذي قاد فيما بعد الثورة الألمانية عام ١٩١٩، يمثل خطوة كبرى للأمام بالنسبة لحزب ماركس.

٩- يومٌ توقف فيه الزمن: كوميونة باريس

في ١٨٧١، جسّد التاريخ هذه النقاشات بشكل مثير، وحفّز ماركس لتناول هذه الأحداث بتحليل قوي ومتماسك. في يوليو ١٨٧٠، أعلن لويس نابليون حاكم فرنسا الحرب على بروسيا وعلى بسمارك ذي النفوذ المتزايد. لكن بحلول سبتمبر أُسِرَ لويس نابليون. في باريس، أُعلِنَت الجمهورية بحكومة دفاع وطني، لم تستمر مقاومة هذه الحكومة طويلاً، فانتخبت جمعية وطنية بغرض إجراء مفاوضات سلام مع ألمانيا. ظلت الحكومة بقيادة الرجعي تيير، الذي مكث في مدينة فرساي، بين يدي الحرس الوطني. وحينما استسلم تيير وتراجع، تمكن البروسيون من الاستيلاء على العاصمة باريس، فيما أعلن السكان تأسيس الكوميونة.

ظل ماركس مندهشاً، مسحوراً بالكوميونة طوال الشهرين اللذين استمرت فيهما. كانت انتقاداته ورفضه لجمهورية لويس نابليون الثانية بنفس قوة وثقة تنبؤه بثورة جديدة في فرنسا. لكن للحق، لم تكن تلك الظروف هي الأفضل للانتفاضة العمالية، بعد شهور من الحصار واختباء البرجوازية بعيداً. لقد خشى ماركس أيضاً من أن تؤدي عزلة العمال الباريسيين إلى الهزيمة إن لم يتحركوا ضد فرساي.

وفي تحليله الملهم للكوميونة، رأى ماركس صورة واضحة لسلطة العمال، والعقبات التي ستواجهها، والحدود التي ينبغي أن تتجاوزها، والإبداع الذي يمكن أن تُظهره في بنائها لنظام جديد ومختلف. وقد بدأ بالفعل عصر جديد في باريس في مايو ١٨٧١.

ما الجديد إذن في الكوميونة؟ يجيب ماركس على ذلك في كتابه "الحرب الأهلية في فرنسا" الذي يقدم فيه تحليلاً لما جرى في باريس، ويقدم هذه الإجابة لجيله وللأجيال المقبلة. "كانت تلك بالأساس حكومة الطبقة العاملة.. الشكل السياسي الذي اكتُشِفَ أخيراً، والذي في ظله يتحقق التحرر الاقتصادي للعمل". الأكثر أهمية من ذلك هو أن الكوميونة قد محت أدوات الهيمنة البرجوازية، حيث استُبدِلَ الجيش النظامي بالميليشيات الشعبية (الشعب المسلح)، وأُزيحت الديمقراطية البرجوازية وحل محلها ديمقراطية مباشرة لا يتمتع فيها المندوبين أو النواب بأية مميزات بسبب دورهم السياسي، بل ويمكن استدعاؤهم في أي وقت. كانت تلك دولة جديدة، أما الدولة القديمة فهي تبقى، كما كتب لينين، معتمدة حتى في لحظاتها الأخيرة على "القمع العنيف للأغلبية". لقد استُبدِلَت هذه الدولة في باريس بنوع جديد من الحكم ليس منعزلاً عن هذه الأغلبية ولا يقبع فوقها، بل مكشوفة لها في كل شيء. هذه هي ديكتاتورية البروليتاريا كما تخيلها ماركس قبل الكوميونة بكثير.

لكن في الشهرين اللذين قضتهما الكوميونة قيد الحياة، لم يكن لدى الكوميونيون ما يكفي من الوقت لتفعيل النظام الجديد، أي لترسيخ تحرر النساء ومحو الاستغلال وبناء هياكل الكوميونة في الحياة الاجتماعية. وكما وصف ماركس، فإن "الإنجاز الأعظم للكوميونة هو وجودها في حد ذاته". ومنها توصل ماركس إلى استنتاجه، الذي ربما يكون أكثر استنتاجاته اتساعاً في الأفق وبعداً في المدى:

> "لا يمكن للطبقة العاملة ببساطة أن تستولى على جهاز الدولة القائم بالفعل وأن تستخدمه لتحقيق أغراضها الخاصة".

الدولة البرجوازية قائمة في الأصل من أجل الدفاع عن حكم الطبقة الرأسمالية، بينما من أجل بناء مجتمع قائم على إعادة توزيع الثروة الاجتماعية، وتحقيق المساواة ووضع حد للاستغلال، يتطلب بالطبع أجهزته الخاصة في السلطة - الدولة العمالية. في باريس، في هذين الشهرين، أظهر لنا التاريخ لمحة مما قد يكون عليه المجتمع، كيف يمكن بناء أجهزة العمال الديمقراطية، وأيضاً النتائج الفاجعة لغياب رؤية عن العالم البديل في لحظات النهوض الثوري.

في جمعية الكوميونة، كان هناك ١٧ عضواً من الأممية. لقد كانت الجمعية تشمل طيفاً واسعاً من الرؤى، وباستثناء الدفاع عن الكوميونة ورفض الجمهورية الرجعية، كان هناك القليل من الوضوح حول الأمور. أنصار برودون كانوا منقسمين - حتى أن بعضهم ذهب إلى فرساي راكعاً خلال الأحداث. وآخرون كانوا من أتباع بلانكي وباكونين، الفوضوي الروسي الذي نازع ماركس في تراث الكوميونة وتسبب في فناء الأممية الأولى واندثارها. كان باكونين متآمراً نشطاً وافر الحماس، وعدواً

لدوداً للدولة، لكنه لم يكن صديقاً للطبقة العاملة. وبالطبع كان باكونين يجادل بأن لا ينبغي على الطبقة العاملة أن تنظم نفسها وتعد العدة للإجهاز على السلطة، فذلك من وجهة نظره يُعد شكلاً من أشكال السلطوية. وبدلاً من ذلك، وهذا ما يثير السخرية، أن تتولى الخلايا التآمرية السرية شن الهجوم على الدولة - في تجاهل تام لمن تدعي تلك الخلايا تمثيلهم.

المهم في هذا الأمر أن باكونين كان يتحدى أكثر مبادئ ماركس مركزية - تحرر الطبقة العاملة ينبغي أن تنجزه الطبقات العاملة نفسها. وفي المؤتمر الثاني للأممية، في ١٨٧٢، هاجم باكونين فكرة بناء منظمة مركزية منضبطة، فيما أجاب ماركس وإنجلز على ذلك بأكثر العبارات تأكيداً على أن الأممية، كما ذكرا: "أداة حاسمة للثورة، وليست نادٍ للنقاش... إنها منظمة للنضال، وليس للنظريات".

توفي ماركس في مارس ١٨٨٣. وللمفارقة، خلت سنواته الأخيرة من الضغوط المادية التي حالت حياته جحيماً هو وجيجي وأولادهما. لكن برغم الراحة النسبية التي نَعِم بها في شيخوخته، لم يكن شيءٌ يعوّضه عن فراق أطفاله ووفاة زوجته قبله بعامين. كان إنجلز بالطبع بجانب ماركس على فراش الموت، تماماً كما كان ملازماً له في كل خطوة في طريقهما الثوري منذ لقاءهما الأول. وخلال الـ ١٢ عاماً التي عاشها إنجلز بعد وفاة ماركس، كرّس الرجل هذه الفترة لنشر أعمال رفيقه وصديقه. وبكل تقدير وإنكار للذات، أعلن إنجلز لدى وفاة ماركس أن "توقف أعظم مفكر عن التفكير".

كانت الانقسامات الداخلية بين باكونين وماركس تعني أن هذه المنظمة الأممية لا يمكن أن تحقق الهدف منها، وقد انهارت بحلول العام ١٨٧٦.

أظهرت الكوميونة شجاعة وإبداع الطبقة العاملة، كما قدمت لمحة من نظام اشتراكي جديد، كما أوضحت بجلاء الحاجة إلى محو الدولة البرجوازية من أجل بناء النظام الجديد. وفي هزيمتها، والانتقام المريع الذي لحق بها بعد ذلك، والمذابح التي ارتكبتها الطبقة الحاكمة المذعورة، أوضحت أيضاً لمحة عن المستقبل، أظهرت الحاجة الماسة للأممية. سقطت الكوميونة، لكن ماركس أوضح أن ذلك كان بسبب "أنها لم تظهر في كل المراكز، في برلين ومدريد، إلخ، الحركة الثورية التي تستجيب وتتماشى مع الانتفاضة القصوى للبروليتاريا الباريسية" (٢٥). والمهمة المطروحة في المستقبل، والتي يجب أن نتعلمها من الكوميونة، هو عدم تكرار ذلك.

١٠- ماركس اليوم

هناك دائماً من يرددون "ليس لدى ماركس ما يقدمه لنا في القرن الحادي والعشرين". هناك دائماً من يجادل، في كل مرحلة، بأن هذه الأفكار كان لها وقتها، ووقتها هذا كان في الماضي.

إلا أن فهم القوى القوانين والعوامل التي توضح كيف تعمل الرأسمالية، وبأي غرض، يدفعنا مرة بعد أخرى للعودة إلى ماركس. والمساعي التي لا مهادنة فيها من أجل تحقيق فائض القيمة لا تزال جارية تفوق كل الاعتبارات الأخرى، والعالم اليوم يتشكل، أو بالأحرى يتشوّه، بالسيطرة المطلقة لرأس المال. صحيح أن العملية كلها تتغير، والبرجوازية قد تتخذ أشكالاً مختلفة أو تحيا بطرق مختلفة، وأعدادٌ غفيرة من العمال يرتدون الياقات البيضاء أو الملابس الرسمية بدلاً من زي العمال. إلا أن العلاقة بين من يملكون ويسيطرون ويديرون ثروات المجتمع وموارده، وأولئك الذين يحيون على الأجور التي يتلقونها لإنتاج الثروة، باقية ومستمرة تماماً كما وصفها ماركس. التغيرات الحادة في العالم اليوم، حتى وصل إلى حافة الدمار، نراها في انبعاثات الاحتباس الحراري، والبحيرات المسمومة، والتصحر الذي يأكل العالم.

لكن ماركس كان مهتماً بفهم الرأسمالية وما تقوم به من نهب، ليس من أجل النقد الأخلاقي لها، بل من أجل الإعداد لتحرر الطبقة العاملة. وكما محت الرأسمالية الحدود أمام توسعها وتمددها، على حركة الطبقة العاملة هي الأخرى أن تصير أممية، وبقوتها المنظمة ستكتسح هياكل السلطة وتقتضي على الدولة نفسها يوماً ما. لكن ذلك لن يحدث تلقائياً، بل بواسطة النضال العمالي. وخلال هذا النضال، لن يتجاوز العالم الرأسمالية فحسب، بل سيولد مجتمعٌ جديد تصير فيه موارد البشر ضمانة لحريتهم.

لم تكن هذه المهمة أكثر إلحاحاً بقدر ما هي عليه اليوم.